

يقاس حجم السر بقيمة الشخص الذي نخفيه عنه". هذا السر الذي رسم خطوط وأساق حياة الشخصيات وسير الأحداث في رواية "ظل الريح" (دار مسكيلاني، ترجمة معاوية عبد الحميد) للكاتب الإسباني كارلوس زافون (1962). غيّرت أسرار الرواية مصائر الشخصيات، تلك الأسرار التي غالباً ما تحملها الكتب والحكايات سنين عديدة، تخفيها بين أوراقها المتعبة حتى يأتي بشرٌ آخرون يبحثون فيها ويستلهمون منها أحداث الحياة وتراكيبها، فيكشفون معها الكثير حول شخوص كانت ستكسوهم غبار الأيام لو لم تخلصهم الكتب. والتي غالباً ما تكون أي الكتب في الكثير من الأزمنة أجزاء عضوية هامة للحياة اليومية، التي ستتحول إلى تاريخ وأقصوصة مدونة، ليس فقط لحفظ التاريخ والحكاية والكاتب، بل لتكون رسماً تصويرياً يتنبئ بالمستقبل. هذا ما جاءت به رواية "ظل الريح"، التي حققت أعلى نسبة مبيعات للكتب في إسبانيا وترجمت إلى عشرين لغة أخرى، الرواية التي تقتفي أثر الشخصيات والأحداث والمدن وتفرش التفاصيل على قاعدة خصبة لتوالد المفارقات والمتناقضات، فتبدأ من تدوين السيرة والتاريخ وصولاً إلى تجارب الحب والحرب والسياسة، تنجح نحو البوليسية إلى جانب الكثير من الرومانسية. لتأخذك إلى رواية داخل رواية تحفل بعوالم كثيرة. تجول بنا رواية "ظل الريح" في عالمين واقعي وتاريخي، الأول بتوصيف وقائع وتفاصيل يوميات دانييل سيمبيري بطل الرواية، خلال بحثه عن كاتب مجهول ومهمش كتب رواية بعنوان "ظل الريح"، وروايات أخرى غيرها عادت على الصبي بلعنة البحث والسؤال فغيّرت أحداث حياته وشكلت انقلباً حاسماً في جوهر وعيه، هو كشخصية تعيش في إسبانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية يبدو فضول صبي في العاشرة يكبر في أيام الرماد كما يسميها زافون أمراً ليس بالسهل، ما يربطه بحتمية تاريخية تشغل مع المصادفات محلاً واسعاً من عالم الرواية وتفاصيلها. وهي بالغرق في تفاصيل حياة الكاتب خوليان كاراكس، الذي ترك مدينته برشلونة وذهب إلى باريس، هناك حين راح يكتب بالخفاء وينشر روايات بقيت دون قراءة ومتابعة، يريدون الثأر منه بسبب الحب وشخصيات رواياته. سر التخفي هذا لاحق حياة كاراكس المفترضة، ولاحق دانييل كذلك في محاولة ربط سحرية قام بها زافون عبرها عن حركة دائرية لذلك التاريخ الوارد في الرواية والمتوقف عند فترات زمنية متفاوتة. الزمان الفعلي لرواية زافون هو عام 1945 والأعوام المتتالية بانتظام حتى عام 1955 هي رحلة دانييل إلى عوالم برشلونة، حيث كل ما فيها كان حاضراً شوارعها بيوتها الصغيرة المعتمدة وروائح الرطوبة التي تملأها، حتى قصورها العامرة منها والمتآكلة بفعل الزمن والنسيان، أما الشخصيات فكانت بدايةً تقتصر على دانييل سيمبيري ووالده الذي فجر سيلاً متدفقاً أمام فضول ابنه الصغير عندما اقتاده إلى أكثر أماكن برشلونة خصوصية، إلى مقبرة الكتب المنسية حيث خُبئت فيها الكتب التي لا يتذكرها أحد ويختفي أثرها مع الزمان. يختار الولد كتاباً هو رواية "ظل الريح" لكاتب هاوٍ يدعى خوليان كاراكس، ويتعهد بالحفاظ عليه مدى الحياة لأنه يملك النسخة الوحيدة المتبقية من هذه الرواية، بعد قراءته لها يقرر البحث عن كاراكس ومعرفة سره، خصوصاً بعد أن لاحقه أحد المجهولين طالباً منه أن يعطيه الكتاب، بعد أن بدأت حكاية ظل الريح الأولى قبل ذلك بعقود لتترك غير مكتملة أو بالأحرى غير معروفة ومبهمة حتى تكملها الثانية، ولأن حكاياتنا لا تروى إن لم يذكرها الآخرون كما يفصح الكاتب الهارب من واقع متأزم خوليان كاراكس بطل الرواية الأولى زمنياً، والذي عاش الحرب الأهلية الإسبانية وعاشت به حرباً عاطفية وجودية، جعلت منه كاتباً مهمشاً لم يلق الشهرة والقراءة إلا بمن يهتمهم أمره. فيتكلف الصغير دانييل بطل الرواية الأقرب زمنياً مهمة البحث عنه ونكش تفاصيل حياته وكتباته وأسباب تهميشها وتعمد حرقها وإتلافها للتخلص مما تخفيه من أسرار. تُكمل تفاصيل بحث دانييل أسرار حياة خوليان كاراكس، فتكون الحكايات كلعبة مرايا متتالية تعكس الواحدة وجه الأخرى، ذلك إنه من الضروري أن تكتمل حكاية كاراكس الضائع والشخوص المرتبطة بها لتكتمل حكاية الصغير دانييل، الذي يكبر في عالم بوليسي وعاطفي غالباً ما يقهره ويحبه في أحيان كثيرة. درس في حكاية المهزومين حين تكون الرواية حاملاً لرواية أخرى تُنسج فيها خيوط الواقعية السحرية التي يبدو تأثر الكاتب بها جليلاً، تحمل على عاتقها مهمة تشريح وقائع وأحداث تؤدي إلى أحداث أخرى في محاولة لفهم الغموض الذي يتنفس خلف التفاصيل. بخصوصية فكرية وحيوية سردية تميز أسلوب السرد والروي عند كارلوس زافون، في محاكاة لأسلوب الكاتب الإيطالي الراحل أمبيرتو إيكو في روايته الأشهر "اسم الوردة"، كما أشار كثيرون لنقاط تلاقٍ بين أسلوب الكاتبين، وتُشير أيضاً لأهمية كبرى أعطاهها نمط السرد هذا لأحداث الرواية التي قامت على أرضية مشبعة بالألغاز والأسرار، لا يمكن أن تسير أساقها دون مضمون سحري وقوالب سردية تمتع كتاب أمريكا اللاتينية، حيكات تتقن فن الاسترجاع والعودة خلفاً بغية التأثير والتغيير في واقع بات هزبلاً بعد نهاية الحرب، في محاولة للقول بأن الأدب يمكنه أن يصنع حياة أخرى للشخصيات، كما يمكنه أن يُقوّم تفاصيل الواقع بسحريته الخالصة. عبر بكرة من المتتاليات مشدودة على بعضها ريثما تنزلق واحدة حتى تظهر الأخريات، في علاقة متتالية لحكايات ماضي المكان وماضي الشخوص المتأثرين بنتائج واقع واحد ومماثل، فكل شخصية تؤثر

بالأخرى على حد سواء حتى العابرة منها على سيل الأحداث. تخلق الرواية سياقاً تاريخياً اجتماعياً وسياسياً يحتم على القارئ امتلاك الصبر لإكمال حلّ الخيوط المتراكبة، وكل ما تحمله الرسائل التي فرض وجودها وجود الأسرار، فكان النص الأخير الذي حمل عنوان نوريا مونفورت (1933-1955) هي ابنة بواب مقبرة الكتب المنسية، وقعت في غرام خوليان فكان لها مأساة على مقاسها، تشكل رسالتها ملخصاً شاملاً لكل ما خفي وضاعت به الفصول الأولى للرواية. ويقع على عاتقها مهمة الروي المباشر والمقصود الذي أنهى تشابك عُقدًا في المصائر والوقائع. وبين دانييل الصغير وخوليان المختفي، تُخلد مقبرة الكتب حكايات المدينة التي تغيرت خلال فترة الحكم الدكتاتورية، والتي مرت منها حرب أممية اهتز لها ماضي المدينة وحاضرها، فلم تجد فرصة أمام التغييرات المتسارعة لسرد قصتها إلى أن كَبُرَ دانييل وعاد خوليان، الاسمين اللذين لن ينساهما القارئ بعد غرقه في عوالم برشلونية سحرية وغامضة، تروي بخطى سريعة من عشرينيات إلى خمسينيات القرن العشرين، حكايةً عن ضمير التخفي والتسلط، وأزمات أخرى لوجود الديكتاتوريات وتأثيرها على حاضر المدن ومستقبلها.